الوصول

لم أكن أعرف شيئًا عن هذه المكائد الملكية عندما قمت بزيارتي الأولى إلى المملكة العربية السعودية في عام ٢٠١٣. لقد تم مؤخرًا تعييني كمراسل للشرق الأوسط *لصحيفة نيويورك تايمز* بعد أن عشت وعملت في المنطقة لمدة سبع سنوات. تحدثت وقرأت اللغة العربية، وعشت في لبنان، وكتبت من مصر وسوريا والعراق وليبيا وأماكن أخرى، مما أتاح لي فهمًا واسعًا لديناميكيات المنطقة. لكن المملكة العربية السعودية كانت عبارة عن ثقب أسود، حيث يهيمن على سياساتها الغامضة رجال يرتدون أردية بيضاء متطابقة بأسماء تبدو قابلة للتبديل، ومجتمعها غامض، واختزلت معظم هذه الكتابات إلى العموميات حول مسقط رأس الإسلام والغضب من معاملة النساء.

لقد اعتدت سماع العرب يلومون المملكة العربية السعودية على جميع أنواع العلل، من صعود أحزاب أو اتجاهات سياسية معينة، إلى تمويل أو إلهام الجماعات الإرهابية مثل الدولة الإسلامية والقاعدة، إلى انتشار المحافظة الاجتماعية. لكن آليات النفوذ السعودي بدت غير مرئية، كما لو أن قوة المملكة انبثقت عبر الشرق الأوسط بتردد دون سرعة الصوت أثر في كل شيء لكنه ظل غير مسموع للأذن المجردة.

على مدى السنوات الخمس التالية، كانت مهمتي هي تحديد المكان المناسب. خلال عشرات الزيارات إلى المملكة والرحلات إلى العديد من محافظاتها، التقيت وتعرفت على مئات السعوديين من مختلف شرائح المجتمع: رجال الدين الذين اعتقدوا أن المملكة هي أفضل مكان على وجه الأرض. الشباب الذين يتوقون إلى الهروب؛ الأمراء والأميرات الذين كانوا غافلين عن امتيازهم؛ النساء اللواتي أردن القيادة؛ النساء اللواتي لا يهتمن بالقيادة؛ وغيرهم ممن يفخرون بكونهم سعوديين حتى لو تمنوا أن تنفتح الأمور قليلاً.

خلال ذلك الوقت، كتبت مئات المقالات التي تستكشف السياسة السعودية والسياسة الخارجية والثقافة والدين. رأيت مواقع تاريخية نائية. شاهدت سباقات الخيول في مضمار الملك. التقيت المفتي الأكبر، أعلى سلطة دينية، الذي طلب مني أن أصبح مسلمًا. وكونت صداقات مع مجموعة من السعوديين الذين ساعدوني في فهم كيف يرون وطنهم وإلى أين يريدون أن يذهب. لكن كانت زياراتي المبكرة للمملكة هي التي أظهرت لي المملكة العربية السعودية القديمة، حيث أعطتني معايير يمكنني استخدامها بعد ظهور محمد بن سلمان ومحاولته تغيير كل شيء.

في عام ٢٠١٣، قمت بتسجيل الوصول إلى فندق قديم الطراز في وسط المدينة به صور كبيرة مؤطرة للملك وولي العهد والملك المؤسس عبد العزيز في بهو الفندق. وجميع العاملين رجال من الهند وباكستان ودول عربية أخرى. كان السعوديون الوحيدون في الأفق رجالاً يرتدون أثوابًا بيضاء كانوا يقرأون الصحف دائما في بهو الفندق. لماذا كانوا هناك؟ هل كانوا من الشرطة السرية يراقبون من يلتقي بمن؟ أم أنهم أحبوا الأجواء فقط؟ لم أعلم أبدًا.

بدت غرفتي كما لو أن ورق الحائط قد تم تعليقه في السبعينيات والسجادة كانت موضوعة قبل ذلك. كان هناك مكبر صوت بجوار سريري يمكنني تشغيله للحصول على أذان الصلاة خمس مرات في اليوم. لا أريد ذلك. كان هناك العديد من المساجد حولي لدرجة أنني سمعت النداء بوضوح، حتى مع إغلاق النافذة. وعند ظهر يوم الجمعة، أغلقت المدينة أبوابها للصلاة الجماعية وكانت الخطب صاخبة للغاية لدرجة أنني استطعت متابعتها كلمة بكلمة داخل غرفتي.

لم أكن أعرف أحدًا، لذلك أبلغت موظفًا في وزارة الثقافة والإعلام كان يتعامل مع الصحافة الأجنبية. بدأت أخبره عن المقالات التي كنت أتمنى أن أوردها، لكنه قاطعني قائلاً إنه كان يجب أن أرسل له فاكس فيه "برنامجي" قبل شهر. وبما أنني لم أفعل، لم يستطع المساعدة.

قال: "أنا آسف جدًا"، ولم يبد آسفًا على الإطلاق.

قدم لي الشاي في كوب بلاستيكي.

"استمتع بوقتك في المملكة العربية السعودية."

كانت لدي قائمة بأرقام الهواتف التي ورثتها من زملائي الذين غطوا المملكة من قبل، لذلك ذهبت إلى العمل، واتصل بسعوديين لطلب الاجتماعات. كان معظمهم يرحبون بي بشكل مفاجئ، ويعرضون مقابلتي في الفندق الذي أعمل فيه أو يرسلون سائقيهم إلى منازلهم أو مكاتبهم. لم يكن هناك أي شيء سري حول ذلك، ولم يظهر الرجال الذين يقرأون الصحف في بهو الفندق أي اهتمام. في ذلك الوقت، لم يكن لدى السعوديين أي سبب للقلق بشأن التحدث إلى صحفي أجنبي.

من الواضح أن المملكة كانت ثرية، ويبدو أن العديد من السعوديين الذين التقيت بهم يمتلكون الكثير من المال دون القيام بالكثير من العمل. لكنها كانت أيضًا أكثر رتابة مما كنت أتوقع، مع استمرار أعمال الطرق السريعة المزدحمة والإضاءة السيئة بمجرد أن يغادر المرء الطريق الرئيسي. في ذلك الوقت، كانت المملكة في نهاية فترة استحقاق استمرت عشر سنوات،

ظلت خلالها أسعار النفط مرتفعة، مما أدى إلى ضخ الأموال إلى الحكومة، وبالتالي تضخ إلى جميع الشعب. لو لم يكن هناك نفط، لما كان هناك تقريبا أي نشاط اقتصادي على الإطلاق.

غير السعوديين قاموا بأكثر الوظائف ظهورًا. شكل الأجانب حوالي ثلث سكان المملكة، وقاموا برفع الاقتصاد الثقيل. عند تسجيل الوصول إلى فندق، من المحتمل أن يقابل المرء مصريًا أو هنديًا. وإذا ركبت سيارة أجرة ستجد السائق في الغالب أفغانيًا. امتلأت مواقع البناء بالبنغلادشيين والباكستانيين. كانت الطبقة المهنية مليئة بالعرب، مع مهندسين ومديرين ومحاسبين وأطباء من العراق ومصر وسوريا ولبنان. عمل عدد أقل من الغربيين في البنوك والشركات الكبيرة وصناعة النفط أو كمستشارين للعائلة المالكة الغنية.

لقد أدهشتني المحافظة في المملكة وكيف شكلت الوهابية كل جانب من جوانب الحياة. في الأماكن العامة، ارتدت جميع النساء تقريبًا عباءات سوداء فضفاضة تسمى "العبايات" تخفي أشكالها، وتحولها إلى أشكال سوداء متضخمة، لا يمكن تمييزها إلا من الكعب العالي أو أحذية التنس التي تظهر في الأسفل. غطت جميعهن تقريبًا شعرهن، وغطى معظمهن وجوههن، ولم يتبق سوى شقوق رفيعة لأعينهن. كان الاختلاط بين الرجال والنساء غير المرتبطين ممنوعًا، ولمنع ذلك، تم تقسيم المطاعم إلى أقسام "للعائلات"، حيث يمكن للرجال والنساء ذوي الصلة الجلوس معًا، و"العزاب" الذين كانوا جميعًا رجالاً. كنت أعرف أن العديد من السعوديين يختلطون على انفراد، ويمكن للرجال والنساء عادة الاجتماع في ردهات الفنادق دون مشاكل تذكر. لم يرغب آخرون في الاختلاط ورأوا الفصل بين الجنسين كجزء من ثقافتهم. في بعض الدوائر المحافظة، قضى الرجال حياتهم كلها دون رؤية وجوه النساء غير أقاربهم المباشرين – حتى زوجات إخوانهم.

تغلق المتاجر والمطاعم أبوابها عند سماع الأذان، حتى لو كان أصحابها يتسكعون في الخلف ويقضون الوقت على هواتفهم بدلاً من الذهاب إلى المسجد. لم يكن لديهم خيار سوى إغلاق أبوابهم لتجنب غضب هيئة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ما يسمى بـ "الشرطة الدينية". والتي يقوم أعضاؤها الصارمون والملتحون بدوريات على المناطق العامة لمضايقة النساء اللواتي يعتبرونهن لا يلبسن ما يخفي ما يجب إخفاؤه، وللبحث عن الذين يشربون الخمر، ويتعاطون المخدرات، أو يختلطون مع الجنس الآخر اختلاطًا غير لائق. وأفادت مواقع إخبارية محلية أنهم اقتحموا قبوًا كان مسيحيون هنود يقيمون فيه خدمة كنسية سرية (حظرت المملكة ممارسة أي دين آخر غير الإسلام)، وأنهم فضوا حفلة عيد ميلاد رقص فيها شباب سعوديون "رقصًا غير لائق" (اعتبرت احتفالات عيد الميلاد غير إسلامية).

هذا يعني أنه لم يكن هناك الكثير للقيام به. في الواقع، كان الأمر مملاً للغاية. لا توجد أفلام، ولا موسيقى، والحدائق قليلة. شعرت بأنني محاصر في غرفتي، فذهبت إلى المركز التجاري لتغيير المشهد، لكن لم يُسمح لي بالدخول لأنه كان "وقتًا عائليًا" وكنت رجلاً عزبًا. لذلك جلست في الخارج وشاهدت شبابًا سعوديًا يحاولون ادعاء زيارة بعض العائلات للتسلل إلى الداخل، حيث قد يرون بعض الفتيات. حاولت العمل في المقاهي، لكنني كنت أطرد خارجًا عندما يحين وقت الصلاة. ذات مرة جلست في الخارج وحاول شرطي دفعي إلى المسجد.

نظرًا لوجود عدد قليل جدًا من الأماكن العامة للشباب للتسكع، قاموا بتجميع أموالهم لاستئجار صالونات بسيطة حيث يمكنهم التجمع للتحدث وشرب الشاي ومشاهدة التلفزيون. قبل وصولي إلى هناك، كان أكثر هؤلاء الشباب جرأة يسرقون السيارات وينخرطون في نوع فريد من الاستعراض بالسيارات يسمونه *"تفحيط"* والذي *نتج عنه* أعمال تخريبية. وكما يفعل منظمو حفلات الرقص الصاخبة، ينظم الشباب أيضًا أحداثًا منبثقة حيث يمتع السائقون الحشود الحاضرة بفعل حيل وحركات خطيرة بالسيارات. ولإكمال الصورة، كان الشعراء يشيدون بسائقيهم المفضلين الذين تنافسوا على زيادة مشجعيهم ومتابعيهم. كان الأمر خطيرًا وغير قانوني، ولكنه ممتع، مثل سباقات السرعة في عهد جيمس دين، وقد أعطت منافسات التفحيط هذه الطبقة الدنيا في المدينة، الذين لم يستفيدوا كثيرًا من ثروة المملكة، وسيلة لتفريغ غيظهم. لكن بحلول الوقت الذي وصلت فيه إلى الرياض، كانت الحكومة قد ملأت المدينة بكاميرات المراقبة حتى تتمكن الشرطة من إيقاف المتسابقين قبل أن يشرعوا في التفحيط.

كان لدى الشابات خيارات أقل، لذلك التقين في الغالب في المنازل أو خرجن لتناول الطعام. كان هناك الكثير من الوجبات السريعة، والكثير من الأكل. لكن إذا كان سائقو السيدات مشغولين ولم يتمكن أي من الأقارب الذكور من توصيلهن، فإنهن يبقين في المنزل.

بعد وصولي بأيام قليلة، كانت هناك مظاهرة للمطالبة بقيادة المرأة، رغم إصرار المنظمين على أنها لم تكن مظاهرة، لأن الحكومة كرهت المظاهرات. كانت مجموعات صغيرة من النساء تتحدى حظر القيادة بين الحين والآخر لعقود، واختارت مجموعة من الناشطات ٢٦ أكتوبر ٢٠١٣، لحملتهن القادمة. كانت الفكرة بسيطة: النساء اللواتي لديهن تراخيص أجنبية قانونية سيقودن السيارات وينشرن مقاطع فيديو لأنفسهن عبر الإنترنت لإثبات أنه لم تحدث مشكلة كبيرة.

لكن أنباء "اللامظاهرة" انتشرت وحثت القوى المحافظة على تذكير المملكة بمخاطر قيادة النساء. وانتقد عالم ديني على شاشة التلفزيون النشطاء وقال إنهم "خطر كبير" وأهدافهم "مشبوهة وتهدد الوطن". وقال إن رجال الدين منعوا النساء من قيادة السيارات "بسبب المشاكل السياسية والدينية والاجتماعية والاقتصادية التي تنطوي عليها" والتي يمكن أن "تفتح باب الشر". وقاد رجل دين آخر وفدًا من أكثر من مائة رجل من جميع أنحاء المملكة لتحذير الملك عبد الله من "مؤامرة قيادة النساء للسيارات".

مع اقتراب اليوم المرتقب، قام المخترقون بتشويه موقع الويب الخاص بالنساء، وملئه بالإهانات ونشر فيديو لناشط أمريكي إسرائيلي يدعو النساء للقيادة ويتهمون "الصهاينة" بسخرية باستخدام هذه القضية لإضعاف المملكة. وحذرت الحكومة من أنها حرمت كل ما "يزعج السلم الاجتماعي، ويفتح باب الفتنة، ويستجيب لأوهام أولئك الذين يعانون من أحلام مريضة من المتحيزين والمتطفلين والمفترسين. وأضافت أن القوات الأمنية سترد "بكل قوة وتصميم" على معاقبة كل من يسعى إلى "تقسيم المجتمع وتفتيته". واتصل مسؤولو الأمن بالنشطاء ليطلبوا منهم البقاء في منازلهم.

لكن في ذلك اليوم، قادت بعض النساء فعلاً. وقال المنظمون إنهم تلقوا مقاطع فيديو من عشرات النساء، لكن كان من الصعب معرفة عددهن، وعلى أي حال، كان العدد ضئيلاً في بلد يعيش فيه ٢٢ مليون مواطن. شعرت في ذلك اليوم بأن عدد الصحفيين الأجانب الذين يبحثون عن سائقات أكثر من عدد السائقين أنفسهم.

لكن مقاطع الفيديو كانت ساحرة. أظهر أحدهم امرأة شابة تبتسم وهي تسرع عبر الرياض، تضحك بينما كان والدها يصورها من مقعد الراكب.

وكان يقول هذه هي لجين الهذلول التي وصلت لتوها للرياض وهي في طريقها للمنزل. وهي تقود السيارة وسعيدة. إن شاء الله بعد عشر سنوات سنضحك على هذه الصورة".

لقد تحدثت إلى عدد من المشاركات. كانت إحداهن مصورة ومحللة نفسية تبلغ من العمر ٦٠ عامًا تدعى مديحة العجروش، وقد أخبرتني أن طلب النساء مقابلة الملك عبد الله قد تم رفضه. أزعجها ذلك، لأنه بدا وكأن رجال الدين يقابلون الملك متى أرادوا. كل ما أرادته هو أن تقود بنفسها إلى المقهى.

قالت لي: "نحن نبحث عن أسلوب حياة عادي، لكي أركب سيارتي وأفعل شيئًا صغيرًا مثل أن أحضر لنفسي كوبًا من الكابتشينو أو شيئًا مثل أخذ طفلي إلى غرفة الطوارئ".

في صباح يوم حملة القيادة تلك، اصطحبها سائقها إلى مقهى كوستا، حيث كان من المقرر أن تقابل صديقتها لتقود معها. لكن رجلين كانا يتابعانهما، لذا ألغوا المهمة، ولجأوا إلى مركز تجاري، واشتروا سيارة لعبة صفراء، قدموها للرجال كهدية. فتركهن الرجال وعلامات على الغضب على وجوههم.

صدمها الصخب الذي أحاط بالقضية.

قالت لي "هذه ليست ثورة".

تحدثت أيضا مع أستاذة لغويات في جامعة الرياض، إيمان النفجان، والتي كانت لها مدونة عن المرأة السعودية. لم يكن لديها ترخيص، لذلك صورت نساء أخريات أثناء قيادتهن للسيارة. لكنها كانت تمتلك بالفعل سيارة، سيارة فورد بيج، وشرحت طريقة النقل لديها.

قالت: "توجد غرفة صغيرة خارج منزلي، وفي تلك الغرفة الصغيرة شاب صغير من بنغلاديش" ."يقودني".

ضحكت وضحكت أيضا.

قالت: "هذا سعودي من أجلك."

في السنوات المقبلة، تصطدم هؤلاء النساء الثلاث وسعيهن للقيادة بصعود محمد بن سلمان بطرق غير متوقعة.

بحلول نهاية اليوم، لم يتم سجن أي امرأة، ولم ينهار المجتمع، وانتهى الأمر بفيديو موسيقي نشرته مجموعة من الفنانين السعوديين على موقع يوتيوب. على أنغام أغنية " No, Woman, No Cry" لبوب مارلي، والتي تعني "لا أيتها المرأة لا تبكي"، غنوا أغنية أكابيلا قالت "No, Woman, No drive" أي "لا أيتها المرأة لا تقودي"

"أتتذكر عندما كنت تجلسين في سيارة العائلة، لكن في المقعد الخلفي..."

لقد سخروا من رجل دين جادل بأن القيادة تضر بالأعضاء التناسلية للمرأة.

"المبايض آمنة وبصحة جيدة، لذا يمكنك إنجاب الكثير والكثير من الأطفال".

لقد كان مضحكًا وانتشر على نطاق واسع، وكان نقده ذكيًا لدرجة أنه لم يؤجج المشاعر أو يتسبب في إلقاء القبض على أي شخص.

"يا أختي الصغيرة، لا تلمسي تلك العجلة! لا يا امرأة، لا تقودي!"

كانت تلك واحدة من العديد من الحوادث خلال زياراتي المبكرة التي أوضحت أن المملكة كانت مليئة بالشباب الذين تفرّعوا إلى العالم الخارجي من خلال وسائل الترفيه ووسائل التواصل الاجتماعي والذين رأوا المملكة بطرق مختلفة تمامًا عن شيوخهم.

ظللت ألتقي بشباب سعودي تحدوا افتراضاتي حول ما يعنيه أن تكون "ليبراليًا" أو "محافظًا". تعرفت على رجل متدين، كان له لحية طويلة وبلا شارب، وهو سمت *سلفي* شديد المحافظة قلد ممارسات النبي محمد وأصحابه من قرون سابقة. لقد رأيته مرة يقرأ السيرة الذاتية لهيلاري كلينتون.

سألته "أنت لا تصدق حتى أن المرأة يجب أن تنخرط في السياسة، أليس كذلك؟"

قال هذا صحيح، لكنه أكمل بكلام لا صلة له بالموضوع.

قال "إنها شخصية مهمة وأريد أن أعرف كيف تفكر".

في المرة التالية رأيته، وكان يقرأ رواية شيفرة دا فينشي.

سألته عن رأيه.

قال إن تاريخها زائف، لكنه لم يهتم "قصة عظيمة"!

لقد كونت صداقات مع قاض كانت وظيفته اليومية تطبيق الشريعة. التقينا لمناقشة مقال كنت أكتبه، ولكن عندما توقفنا لتناول الشاي، انحنى وسأل، "هل تشاهد مسلسل *Breaking Bad*؟"

عندما تعرفت عليه، أخبرني أنه في إجازة، كان يحب أن يأخذ زوجته وابنته إلى كاليفورنيا، حيث يستأجرون سيارة ويتجولون في هوليوود. تم تعيينه فعليًا في القضاء بعد الجامعة وكان يحاول الخروج منه، وهذا لم يكن سهلاً. تساءلت عن الحياة التي كان سيختارها لو كان قادرًا على ذلك.

كان الشعار في المملكة العربية السعودية للملك عبد الله، والذي كرره المسؤولون الحكوميون والأكاديميون السعوديون، هو "التطور وليس الثورة". كانت المملكة مستقرة سياسيًا، على حد علم الجميع، وكان الملك العجوز مصلحًا في طريقه. رفع اللوائح للسماح للمرأة بدخول سوق العمل؛ وعين مجموعة من النساء في مجلس الشورى، وهو هيئة استشارية ملكية؛ وتعهد بالسماح للمرأة بالتصويت والترشح في الانتخابات البلدية. رحب معظم السعوديين بهذه التغييرات، لكنهم كانوا مدركين تمامًا للفوضى التي أحدثتها

انتفاضات الربيع العربي في البلدان المجاورة. وهذا ما جعلهم سعداء بتباطؤ الأمور وترك الحكم لأفراد العائلة المالكة طالما استمروا في دفع الفواتير.

لكن البناء بهدوء كان تحديًا يلوح في الأفق للنظام الملكي. مع تقدم الأبناء الأصغر للملك المؤسس في السن وموتهم، لم يكن من الواضح من الذي سيتولى السلطة بمجرد رحيلهم. يجب أن ينتقل العرش في النهاية إلى الجيل القادم، لكن كيف؟ الجيل الثالث احتوى على آلاف الأمراء، فمن سيختار من بينهم؟

في عام ٢٠٠٩، عرض صحفي سعودي معروف، قضى عقودًا مع الملوك والأمراء وكان لديه شعور جيد بالديناميكيات الملكية، القضية لدبلوماسي أمريكي.

قال الصحفي إن المملكة كانت "دولة تمر بمرحلة انتقالية"، وتواجه أسئلة صعبة حول مستقبلها. في غضون عشر سنوات، توقع أن يكون للمملكة العربية السعودية حاكم شاب من "الجيل الجديد". كانت المشكلة أنه "لا أحد يعرف من سيكون هذا الشاب".

كان اسم الصحفي جمال خاشقجي.

وقد كان محقًا.